إزاء القرآن وهو الأدب الإلهى المعجز ، والإعجاز ليس معناه كما قلنا الالتواء عما ألف الجاهليون من طرائق البيان ، أو قهر اللغة على الالتواء ، ولكن معناه كما قلنا الرفعة والسمو على مقدرتهم فى البيان ، فقد كان القرآن مختلفاً عن بيان الرسول نفسه الذى كان من إنشائه ، من هنا جاء القرآن نسيج وحده ، ولا يصح بعد هذا أن يكون شاهداً من شواهد النثر الفنى فى الجاهلية .

أما النقطة الثالثة : فتتصل بتصوير القرآن للحياة الجاهلية وتعبيره عنها[1]. صحيح إن القرآن صور الحياة الجاهلية وعقائد الجاهليين وعاداتهم وأساليبهم فى الجدل والخصومة كما سجل جوانب من تاريخهم ، بل إنه عاصر هذه الحياة وشهد فى فترة البعثة كل ما كان فيها من أحوال وما جرى بها من أحداث ، وعبر عن ذلك كله أصدق تعبير . ولكن كل هذا لا يعنى أن القرآن نص جاهلى ، وأن فترة البعثة النبوية ـ كما سيرى الدكتور زكى مبارك بعد ذلك ـ تدخل فى عصر الجاهلية ، لأن أمره لم يكن موقوفاً على ذلك وحده ، فلم يكن هم القرآن أن يصور العصر الجاهلى ويقف عند هذا ، ولم تكن البعثة النبوية بعثة لتسجيل الحياة الجاهلية وتصويرها . . وإلا كان صحيحاً أن القرآن نص جاهلى ، وأن عصر البعثة النبوية لا يعدو أن يكون عصراً جاهلياً ، ولكن الأمر الذى لا مراء فيه هو أن القرآن حين صور الحياة الجاهلية إنما صورها من أجل أن يغير الصورة ، وحين تحدث عن الجاهلية إنما تحدث عنها من أجل أن يغير معالمها بل يهدم أسسها ويزلزل كل ركن فيها ، ويحدث ذلك الانقلاب الخطير وتلك النقلة الكبرى فى الجزيرة العربية . إذن فقد جاءت

---

(١) عرض قبل ذلك الدكتور طه حسين لهذه المسألة فى كتاب : « الأدب الجاهلى » حيث رأى أن « مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الأدب الجاهلى » . (فى الأدب الجاهلى ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٧٠ ـ ٨٠) .